السورة التاسعة عشرة

سورة القدر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾ ﴾

هذه هي السورة الثامنة عشرة في الترتيب التراجعي لسور القرآن الكريم، وهي تتألّف من ٣٠ كلمةً فيها ما لا يقلّ عن ٤٥ موقعاً جديداً أضافه القرآن الكريم إلى حياتنا اللغويّة بعد الإسلام.

وتأتي الخصوصيّة اللغويّة للسورة من اسمها المتفرّد الذي يتكرّر فيها ثلاث مرّاتٍ من غير أن نعثر عليه في أيّة سورةٍ أخرى بهذا المعنى، أو المعاني، التي ورد بها هنا. وتأتي الخصوصيّة كذلك من التعبيرات التي تختصّ بها هذه السورة، على صِغرها، فلا تتكرّر في أيّ مكانٍ آخر من القرآن، مثل: ﴿لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾، ﴿أَلْفِ شَهْرٍ﴾، ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾، ﴿سَلَٰمٌ هِىَ﴾، ﴿مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾.

كما تختصّ السورة بعلاقاتٍ نحويّةٍ متشابكةٍ لم تعرف لها مثيلاً أيّة سورةٍ أخرى، ولا سيّما الآيتان الأخيرتان منها، كما سوف نرى.

أوّلاً: الألفاظ والمصطلحات

١- إنّا:

هذا اللفظ مكوّنٌ من (إنّ) التأكيديّة وضمير جمع المتكلّمين (نا)، فهو إذن، (إنّنا) مع حَذْف إحدى نونَي (إنّ) لاجتماع ثلاث نونات في اللفظ، ولأنّ هذه النون زائدةٌ في الأصل.

والجديد هنا أنّ اللفظ، وهو خاصٌّ بجمع المتكلّمين كما ذكرنا، جاء للتعبير عن الواحد الأحد، منزِّل هذا الكتاب، وهو استخدامٌ لم يعرفه الشعر الجاهليّ، فيما بين أيدينا من نصوصه على الأقلّ، إذ اقتصر استخدامه فيه على مجموع "المتكلّمين" دون "المتكلّم" الفرد، كقولهم مفتخرين بأقوامهم:

إنّا لَنُرخِصُ يومَ الرَوعِ أنفُسَنا ولو نُسامُ بها في الأمْنِ أُغلِينا
المرقّش الأكبر (ت٧٢ ق.ه)

إنّا إذا حَمِيَ الوغى نَرْوي القَنا ونَعِفُّ عند تَقاسُـــم الأنفالِ
عنترة (ت٢٢ ق.ه)

والبيت الوحيد الذي عثرت عليه هناك ممّا قد يثير بعض التساؤل عندنا هو بيتٌ آخر للمرقِّش الأكبر:

إنّا مُحَيُّوكِ يا سَلمى فحَيِّينا وإنْ سَقَيتِ كرامَ الناسِ فاسقِينا

فاللفظ (إنّا) في البيت قد يعني المرقّش وحده، ولكنّه قد يعني أيضاً المرقّش ومن معه، وهو أسلوبٌ اعتاد الغزِلون أن يحموا أنفسهم به من أيّة تبعةٍ فيُخفوا شخصهم تحت مظلّة ضمير الجماعة وهم يحيّون أو يتحدّثون إلى من يحبّون.

وبدهيٌّ أن نرى الملوك والقوّاد بعد ذلك يلجأون إلى هذا الأسلوب، ليعبّروا عن أنفسهم بضمير الجماعة في خطابهم لشعوبهم: (نحن فلانٌ بن فلان، أصدرنا أوامرنا..). وربّما كان هذا نابعاً من حقيقة أنّهم يمثّلون دولةً أو حكومةً أو شعباً، فاقتضى السياق استخدام ضمير الجماعة.

ومن المهمّ التذكير من جديدٍ بأنّ هذا الأسلوب الإلهيّ في استخدام ضمير جماعة المتكلّمين للتعبير عن الذات الإلهيّة قد اختصّ به القرآن الكريم وحده دون بقيّة الكتب السماويّة التي بين أيدينا.

٢- ٣- ٤- القَدْر [مكرّر ٣ مرّات]

رغم اختلاف المفسّرين حول المعنى المحدّد لهذا اللفظ؛ فإنّه يبقى، في معظم معانيه، اصطلاحاً قرآنيّاً لم يعرفه الجاهليّ من قبل. ولكنّنا نجده في الشعر الجاهليّ بالمعاني التقليديّة التي عرفها العرب لهذا اللفظ قبل القرآن، ومنها معنى (المكانة) كما في بيتَي عنترة:

ولولا سيّدٌ فينا مُطاعٌ عظيمُ القَدْرِ مرتفعُ العِمادِ
حللتِ من السعادةِ في مكانٍ رفيعِ القَدْرِ منقطعِ القرينِ

لقد سبق أن حدّدنا موقفنا من كثيرٍ من الأشعار المنسوبة إلى هذا الشاعر، إذ غلبت في سيرته وأشعاره الأسطورةُ على الحقيقة. وممّا يغذّي شكوكنا هنا أنّ لفظ (القَدَر) -بفتح الدال- لا نجده في الحقبة الجاهليّة إلاّ عند عنترة أيضاً! وذلك في قوله:

يا عَبْلُ يَهْنِئْكِ ما يأتيكِ مِن نِعَمٍ إذا رماني على أعدائكِ القَدَرُ

ولا وجود لهذا اللفظ، بهذا المعنى، في الحديث الشريف.

٥- تَنَزَّلُ:

أصل هذا الفعل (تتنزّل) وحُذفت التاء للتخفيف من اجتماع التاءين، كما يذهب الصرفيّون، ولكنّنا لا نعثر على مثل هذا "التخفيف" للّفظ في الشعر الجاهليّ، وإنّما نجده هناك فعلاً ماضياً بلفظه العاديّ، كقول امرئ القيس (ت٨٠ ق.هـ):

ولِلسَوطِ فيها مجالٌ كما تَنَزَّلَ ذو بَرَدٍ مُنهمرْ

ولا وجود للّفظ في الحديث الشريف.

٦- الملائكة:

لا نعثر على هذا اللفظ في الشعر الجاهليّ، ونجد مفرداً له، ولكن مع قطع الألِف فيه وتحويلها إلى همزة، وذلك في بيتٍ واحدٍ يُنسب إلى علقمة الفحل (ت٢٠ ق.هـ) ويقول فيه:

ولستَ لإنسيٍّ ولكنْ لِمَلأكٍ تَنَزَّلَ مِن جَوِّ السماءِ يَصُوبُ

ويكثر ورود اللفظ بعد ذلك في الحديث الشريف، شأنه شأن أيّ لفظٍ قرآنيٍّ جديد يشكّل أساساً في العقيدة الإسلاميّة كالصلاة والزكاة والصوم والحجّ والجنّ والشياطين.

٧- الرُّوح:

اقترحوا لهذا اللفظ معاني عديدةً، كما سوف نرى في حديثنا عن المواقع المنفتحة، وجميع هذه المعاني لا يربطها بالمعنى الجاهليّ أيّ رابطٍ، وهو المعنى البشريّ الحاليّ نفسه لهذا اللفظ: أي الجزء غير المنظور من الجسد الحيّ، كما في قول عنترة:

أحبُّكِ يا ظَلومُ فأنتِ عندي مكانَ الرُّوح في جَسَدِ الجبانِ

٨- بإذْن:

المعنى الشائع في لغتنا لهذا اللفظ، قديماً وحديثاً، هو السماح بالشيء، كبيراً كان أو صغيراً. ولكنّ اللفظ في القرآن يقترن دائماً بمعنى القوّة والسلطة، فلا يُستخدَم، بسبب هذا الاقتران، مع الأمور العاديّة أو الصغيرة، بل اختصّ بالأمور الكبيرة التي تحتاج إلى القوّة لتنفيذها، فكأنّه، بهذا النوع من الاستخدام، اكتسب معنىً إضافيّاً جديداً ليس في لغتنا العاديّة وهو "الإعانة على الشيء" ويشمل هذا كلّ المرّات الـ ٣٩ التي تكرّر بها هذا الاسم في القرآن الكريم، ومنها قوله تعالى:

- ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٠٢]

- ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٤٩]
- ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ ﴾ [البقرة: ٢٥١]
- ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]
- ﴿ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٤٩]

والغريب أنّ اللفظ يتجرّد، في القرآن نفسه، من هذا المعنى الإضافيّ عندما يأتي في صيغة الفعل، كما يتبيّن لنا في معظم الآيات التي ورد فيها مع مشتقّاته، ومنها قوله تعالى:

- ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ [الأعراف: ١٢٣]
- ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ [التوبة: ٤٣]
- ﴿ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [النور: ٥٩]
- ﴿ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ [النور: ٦٢]

٩- أمْر:

هذا اللفظ حيّر المفسّرين في موقعه الإعرابيّ، ومن ثمّ في معناه. فإن كان تقدير السياق هكذا "هي سلامٌ من كلّ أمر" فمعنى (أمر) هنا هو (شيء)، أي (أمانٌ من كلّ شيء) وهذا المعنى للّفظ سبق أن عرفه الشعر الجاهليّ، أمّا إذا كان التقدير: "تَنزّل مِن كلّ أمر" فيكون معنى اللفظ (الحُكم) أو (مشيئة الله) أو (القدَر) الذي يقدّره الله، فتنْزل الملائكة بالأحكام والأقدار الصادرة منه تعالى، وهو معنىً لا نجده في الشعر الجاهليّ إلا في بيتٍ واحدٍ يُنسب، مرّةً أخرى، لصديقنا عنترة، وهو:

إذا كان أمرُ اللهِ أمراً يُقَدّر فكيف يَفِرُّ المرءُ منه ويَحْذَرُ

ولا أظنّني في حاجةٍ إلى التدليل على نَحل البيت لعنترة، فوضوح الصبغة الإسلاميّة فيه غنيٌّ عن البيان.

ثانياً: الصيغ اللغويّة والعلاقات الداخليّة

١- ٢- أنزلناه:

من المهمّ، حتّى نتبيّن طبيعة المفاجأة في هذه الكلمة، أن نضع أنفسنا مكان ذلك العربيّ الذي سمع السورة ساعة تنزُّلها. لا شكّ أنّه سيَسأل: من هذا، أو من هؤلاء، الذين أَنزَلوا؟ ولماذا لم يُذكروا قبل الفعل؟ وكيف يبدأ الكلام بضميرٍ، بل بضميرين، وليس قبلهما ما يعودان إليه؟

ثمّ يلي التساؤل اللاحق باحثاً عن شأن الضمير الثاني أيضاً: ما هذا الذي أنزلو(ه)؟ ولماذا لا نعثر عليه أيضاً قبل الفعل؟

٣- إنّا أنزلناه:

هذه السورة ليست آخر سورةٍ نزلت من القرآن الكريم، بل ليست من أواخر السوَر النازلة، فهي مكّية، وهذا يعني أنّها من أوائل السوَر التي تنزّلت على الرسول (ص)، وإذن فالوقت ما يزال مبكّراً جدّاً على اكتمال نزوله، ومع هذا فالفعل الماضي (أنزلنا)، وقد سبقته أداة التأكيد والقطع (إنّ)، لا يترك للعربيّ الأوّل مفرّاً من التساؤل والاستغراب: كيف تتحدّث الآية عن "شيءٍ" أو "كتابٍ" بطريقةٍ توحي لنا وكأنّه نزل كلّه (أنزلناه)؟ ثمّ إنّ الضمير المذكَّر (هُ) يُفتَرض أن يعود على (الكتاب) أو (القرآن) ولكنّ الناس لم يروا من هذا الكتاب بعدُ إلاّ "بضع سوَرٍ" أو "آياتٍ" فكان من المتوقَّع عندهم أن يكون اللفظ "أنزلناها" -هكذا بالتأنيث- على الأقلّ، أي بإعادة الضمير على السوَر أو الآيات، ولكنّ التعبير القرآنيّ، ربّما من باب الالتفات أيضاً، أحلّ الكلّ محلّ الجزء، وكأنّ القرآن يُعدّ منذ هذه اللحظة في حكم النازل والمكتمل.

وربّما كانت هذه النكتة اللغويّة دليلنا إلى ما ذهبوا إليه من أنّ النزول نزولان: متأخّر، وهو نزول القرآن إلى الرسول ﷺ، ومتقدّم، وهو نزوله في ليلة القدْر من

رمضان، ومرّةً واحدة، من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا. ونزوله المكتمل هذا يتماشى مع سياق الآية هنا، فإذا كان الأمر كذلك فإنّ هذا النوع من النزول سيكون أكثر إثارةً واستغراباً عند العربيّ؛ لأنّ مفهومه يفوق بكثيرٍ حدودَ عقله وأبعاد خياله.

٤- ٥- ٦- ليلة القَدْر [مكرّر ٣ مرّات]:

تكرّر هذا التعبير، الذي يسمعه العربيّ للمرّة الأولى، ثلاث مرّاتٍ في هذه السورة الصغيرة، ولكنّه ظلّ، مع ذلك، موضع تساؤلٍ ومطارحاتٍ لا تتوقّف إلى اليوم: ما طبيعة هذه الليلة العجيبة التي وُصفت بهذا الوصف؟ وما ﴿ٱلْقَدْرِ﴾ هنا؟ ومن أيّ معنىً اشتُقّ؟ ولماذا تكون هذه الأحداث الخطيرة في الليل وليس في النهار؟

وسنقف عند بعض المعاني التي اقترحوها للفظ ﴿ٱلْقَدْرِ﴾ أثناء دراستنا للمواقع المنفتحة في السورة.

ولا شكّ أنّ العربيّ الجاهليّ، وربّما غير الجاهليّ أيضاً، سيحار في أمر هذه الليلة التي "ستأتي أحداثها" فهو لم يتعوّد إضافة الليلة، حين تكون هكذا مطلقةً، إلاّ مرتبطةً بحدثٍ سبق أن وقع، كقولنا: (ليلة الإسراء والمعراج) و (ليلة الهرير) و (ليلة الهجوم)، وكقول الشاعرين الجاهليّين:

ومِنّا حُماةُ الجيشِ ليلةَ أقبلَتْ ... إيادٌ يُزَجّيها الهُمـــامُ المُحـرّقُ

عياض الضبّيّ (ت؟؟)

نجوتُ منها نَجائي مِن بَجيلةَ إذْ ... أَلقَيتُ ليلةَ خَبْتِ الرَهطِ أرْواقي

ليلةَ صاحوا وأغرَوا بي سِراعَهُمُ ... بالعَيكتينِ لدى مَعْدى ابنِ بَرّاقِ

تأبّط شرّاً (ت٨٥ ق.هـ)

صحيحٌ أنّ الحديث في مقدّمة السورة كان عن أمرٍ قد تمّ وسبق حدوثه: ﴿أَنزَلْنَهُ﴾ ، ولكنّه يتحوّل بعد ذلك إلى حديثٍ عن ملائكةٍ وروحٍ "ستتنزّل"

في تلك الليلة، وعن سلامٍ وطمأنينةٍ يمتدّان مع امتداد الليلة حتّى مطلع الفجر، وهكذا جمعت الليلةُ هنا بين ما مضى (أَنزَلْنَٰهُ) وما يأتي (نَتَنَزَّلُ) وهذا من ألطف غرائب السورة.

٧- ليلةُ القَدْرِ خيرٌ:

تتوقّع آذاننا، لو جرّدناها من تأثير أُلفتِنا لسماع هذه السورة، أن يجري الكلام هكذا:

وما أدراك ما ليلة القدر! إنّها ليلةٌ خيرٌ من ألف شهر،

أو ربّما: إنّها خيرٌ من ألف شهر.

لقد أسقطنا، في قراءتنا التوقّعيّة، لفظ (ٱلْقَدْرِ)، أو عبارة (لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ) كلّها، ما دامت قد ذُكرَت آنفاً مرّتين، واستعضنا عنها بالضمير (ها) في (إنّها)، وذلك حتّى تستجيب العبارة إلى تقاليدنا اللغويّة وتوقّعاتنا التي كوّنتها استخداماتنا البشريّة على مدى السنين.

ثمّ إنّنا أضفنا من عندنا، في الجملتين كلتيهما، الأداة (إنّ)؛ وذلك لنربط الآية بما قبلها، وقد فعلنا ذلك أيضاً استجابةً لتوقّعاتنا اللغويّة نفسها التي تعوّدت أن تربط الجملة اللاحقة بالجملة السابقة بمثل هذا الرابط اللغويّ أو غيره. وهذا يُبرز لنا بعض جوانب الفجوة الكبيرة التي تفصل بين لغتنا ولغة القرآن.

٨- وما أدراكَ ما:

سبق أن عرفنا، عند دراستنا لسورة (الهُمَزة)، اقتصار استعمال هذا التركيب على القرآن وحده؛ وعلى مدى فترةٍ امتدّت حتّى مجيء ابن الروميّ (ت ٢٨٣هـ)، وتأكّدنا من عدم وروده في الشعر الجاهليّ أو الحديث الشريف، إلاّ أن يأتي بمعنى الاستفهام الحقيقيّ كقولنا:

وما أدراك بأنّه وصلَ من السفر؟

وليس بمعنى التهويل والاستعظام كما هو في جميع المرّات الثلاث عشرة التي ورد بها في القرآن الكريم.

ولكنّ اللافت والمهمّ، مرّةً أخرى، هو اقتصار استعمال هذا التركيب على الجزءين الأخيرين من القرآن (٢٩ و ٣٠) بدءاً من السورة ٦٩ (الحاقّة) وانتهاءً بالسورة ١٠٤ (الهُمزة) مع خلوّ السوَر الثماني والستّين الأولى تماماً من هذا التركيب، وهي تشكّل أكثر من تسعين بالمائة من حجم القرآن الكريم!

إنّها وثيقةٌ أخرى تضاف إلى مِلفّ الحقيقة التوقيفيّة الإلهيّة للترتيب الحاليّ لسوَر القرآن الكريم، وإلى حقيقة وجود "شخصيةٍ لغويّةٍ" لكلّ سورةٍ تمنع اختلاط آياتها بآيات السوَر الأخرى.

٩- ألف شهر:

كيف يمكن أن يتلقّى العربيّ الأوّل هذا التعبير الذي يحصي الزمن بالشهور؟ لا غرابة لو سمعنا من يقول:

ألف عام

أو ربّما من يقول:

ألف يوم،

وكذلك لا غرابة لو قيل:

عشرة أشهر، أو:

عشر سنين،

ولكن من حقّنا أن نستغرب لو قيل:

ألف شهر،

إنّ العلاقة بين اللفظ (شهر) والرقم (ألف) لم تتعوّدها لغة العربيّ الأوّل، ولم تعرفها لغة الحديث الشريف، ولا لغتنا اليوم أيضاً، إلاّ من خلال هذه السورة.

١٠- تَنَزَّلُ:

من جديدٍ يأتي رأس هذه الآية مجرَّداً من أيّ رابطٍ لغويٍّ يربط الآية بما قبلها. لقد كانت لغتنا البشريّة تتوقّع أن يقال:

ففيها تتنزّل،

أو: وفيها تتنزّل،

أو: إذ تتنزّل فيها،

أو: لأنّ الملائكة تتنزّل فيها..

١١- تَنَزَّلُ الملائكة:

إنّها صورةٌ ستفاجئ العربيّ الذي لم يتعوّد أن يرى ممّا ينزل من السماء غير الأمطار والصواعق. ولكنّ أهمّ ما في الصورة ذلك الشكل "الجماعيّ" الذي أخذته، فليس ملاكاً واحداً هو الذي يتنزّل من السماء بل "ملائكةٌ" أو ربّما أفواجٌ متتاليةٌ منها، بما تحمله صيغة اللفظ (تَتَنَزَّل)، رغم تخفيفه من إحدى التاءين، من معنى التدرّج والتتابع والاستمرار، وهو ما لا يحمله مثلاً رديفُه الآخر (تَنْزِل).

١٢- تَنَزَّلُ.. والروحُ:

ستزداد الصورة على خيال العربيّ الأوّل غرابةً وتعقيداً بهذه الإضافة الجديدة (الروح) وهو "يرافق" الملائكة في تنزّلها، ولا سيّما بما يحمله هذا اللفظ من معنىً، أو بالأحرى من معانٍ جديدةٍ لم يعرفها العربيّ من قبل، فيترك المجال واسعاً أمام خياله لتَصوُّر المشهد المثير والغريب تماماً عن ثقافته وحدود خياله.

١٣- بإذنِ ربِّهم:

لا يعرف الشعر الجاهليّ هذا التعبير القرآنيّ الجديد، وهو يتكرّر في القرآن ثلاث مرّاتٍ أخرى خارج هذه السورة.

١٤- مِن كلِّ أمْر:

لا نجد هذا التعبير في الشعر الجاهليّ، ولا يتكرّر في غير هذه السورة، ولا وجود له في الحديث الشريف.

١٥- سلامٌ:

الجديد في الآية هنا أنّنا لو حاولنا الإمساك بمقاليد المعنى فيها للتعبير عنه بطريقتنا البشريّة التقليديّة لبدأناها هكذا:

وهي سلامٌ، أو: وإنّها سلامٌ، أو: ويسودها سلامٌ،

فلا نبتدئ الجملة بنكرةٍ، من ناحية، ولا نترك الآية هكذا مجرّدةً من أيّ رابطٍ لغويٍّ يربطها بالآية قبلها، من ناحيةٍ أخرى.

١٦- سَلامٌ:

لا بدّ هنا من تصحيح لمقالنا في النقطة السابقة، فالحقّ أنّنا لو عبّرنا بلغتنا عن معنى (سلام) في الآيةً لقلنا: وهي سليمة، أو: وهي أمينة، أو: وهي مأمونة، أو: وأنتم سالمون.

هكذا باستعمال صفةٍ مشبّهة، أو ما يدخل في بابها من مشتقّات، وليس باستعمال الاسم أو المصدر (سلام) كما وقع في الآية. إنّه استعمالٌ خاصٌّ بالقرآن الكريم وحده.

١٧- سَلامٌ هي:

لقد ابتدأت الجملة هنا بخبرٍ نكرةٍ حُذف مبتدأه (والتقدير: هي سلامٌ) فيكون الضمير المتأخّر "هي" مبتدأً ثانياً خبره محذوفٌ، وهكذا يكون عندنا مبتدآن وخبران، ويكون تقدير الكلام على هذا:

هي سلامٌ من كلّ أمرٍ -أو من كلّ شرّ-، وهي أيضاً مستمرّةٌ حتّى مطلع الفجر.

هذا ما ذهب إليه بعض المفسّرين، وهو أمرٌ لا ندّعي أنّه غير معروفٍ في لغتنا العاديّة، ولكنّنا، في الوقت نفسه، لا ندّعي أنّه أمرٌ مألوفٌ في هذه اللغة، وما نستطيع ادّعاءه هو أنّه لا يأتي عادةً، إن أتى، هكذا في وسط الكلام، وإنّما نبدأ به الحديث فنقول مثلاً:

عجيبٌ أمرُكَ يا فلان.

مع ملاحظة أنّنا بدأنا جملتنا البشريّة بصفةٍ: (عجيبٌ)، وهو أمرٌ عاديّ، وبدأت الآية باسمٍ، وليس بصفة: (سلامٌ) وهو أمرٌ غير عاديّ في لغتنا.

١٨- مِن كلِّ أمرٍ سلامٌ:

ليس من الغريب أن يتقدّم الجارّ والمجرور على ما يتعلّقان به في لغتنا العاديّة. نحن نقول مثلاً: من بيتك خرجنا، ولكنّ الغريب أن يأتي هذا المتعلَّق به مصدراً بحيث نقول لنعبّر عن المعنى نفسه: مِن بيتك خروجٌ. والأغرب من هذا وذاك أن نتوقّف في وسط هذه العبارة فنأخذ نَفَساً عميقاً بعد اللفظ (بيتك): من بيتك. خروجٌ.

إنّ هذا ما وقع في السورة حقّاً فجاءت الجملة موزّعةً بين آيتين، هكذا: مِن كلّ أمرٍ. سلامٌ.

ولو أردنا اتّباع طريقتنا البشريّة التقليديّة في التعبير عن هذا المعنى نفسه لقلنا: هي سلامٌ مِن كلّ أمر، أو بالأحرى: هي سليمةٌ أو آمنةٌ من كلّ أمر.

١٩- سَلامٌ هي:

نحن لم نعتد، في الأصل، أن نقول في لغتنا:

هي دراسةٌ، أو: دراسةٌ هي حتى آخر العام، ولا:

هو امتحانٌ، أو: امتحانٌ هو حتّى نهاية الأسبوع، ولا:

هو بيعٌ، أو: بيعٌ هو حتّى إغلاق المخزن،

إنّه الأسلوب القرآنيّ المميّز، الذي ربّما ترك آثاره في لغتنا بعد ذلك أيضاً، ولكنّه من غير شكّ كان من شأنه أن يفاجئ العربيّ الأوّل، وهو يسمعه يتنزّل عليه لأوّل مرّة.

٢٠- مطلَع الفجر:

لم أجد هذا التعبير في الشعر الجاهليّ مطلقاً، ولكنّني أجد صيغةً فعليّةً له في بيتٍ واحدٍ يُنسب، ومرّةً أخرى، لشاعرنا الأسطوريّ عنترة:

يَعِيبون لَوني بالسَوادِ جَهالَةً ولولا سوادُ الليلِ ما طَلَعَ الفجْرُ

ولم أجد التعبير في الحديث الشريف إلاّ مرّةً واحدةً، ولكن اللفظ جاء في الآية اسم زمان ﴿مَطْلَعِ﴾، أي (وقتَ طلوع الفجر)، على حين يأتي في الحديث مصدراً، وهو بمعنى (مثل طلوع الفجر)، وذلك في قوله ﷺ:

- إنّ اللهَ تعالى لم يُحرِّمْ حُرمةً إلاّ وقد عَلِمَ أنّه سيُطْلِعُها منكم مَطْلَعَ الفجر، ألا وإنّي مُمْسِكٌ بحُجَزِكم أنْ تَهافَتوا في النار كما يتهافتُ الفَراشُ والذباب[1]

ثالثاً: السبائك القرآنيّة

١- إنّا أنزلناه:

هذه سبيكةٌ خاصّةٌ بالقرآن الكريم، وهي تتكرّر فيه كلّ مرّةٍ بعناصرها الأساسيّة نفسها:

أ- إنّا،

ب- الفعل الماضي مع فاعله الذي يأتي ضميراً للمتكلّمين عائداً على غير مذكور،

ت- ضمير الغائب (الهاء) العائد على غير مذكورٍ غالباً.

---

(١) المتقي الهندي، علي بن حسام الدين. **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٩م، ج١١، ص٥٤٣، حديث رقم ٣١٩٢١.

ومن السبائك القرآنيّة الأخرى؛ الشبيهة بهذه السبيكة: ﴿ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ ...، إِنَّا جَعَلْنَٰهُ ...، إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ... ﴾.

٢- وما أدراكَ ما ليلةُ القَدْر:

عرفنا قبل قليلٍ تفرُّدَ القرآن بالتعبير ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ ﴾، وهو يشكّل هنا مع ما يتلوه سبيكةً متميّزة، فتأتي بعده (ما) الاستفهاميّة، هكذا على الأقلّ أعربها النحويّون؛ وإن كنت لا أرى فيها معنى الاستفهام، وإنّما هو معنىً خاصٌّ بهذا التركيب القرآنيّ أقرب إلى معنى التعظيم والتفخيم، فتكون على ذلك: (ما) التعظيميّة، شأنها شأن (ما) التعجّبيّة. ومثلها قوله تعالى:

- ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴾ [المرسَلات: ١٤]
- ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾ [الانفطار: ١٧]

وهي بهذا البناء الإيقاعيّ المتميّز لألفاظها (وما أعملَك ما عملُ العامل) مختلفةٌ قليلاً عن سبيكةٍ أخرى قريبةٍ منها ولا تتطابق معها، إذ لا تنتهي مثلها بمضافَين بل باسمٍ مفردٍ، معرفةٍ أو نكرة (وما أعملَك ما عامل/ عاملون/ العامل)، كمثل قوله تعالى:

- ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴾ [المطفّفين: ٨]
- ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴾ [المطفّفين: ١٩]
- ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴾ [الطارق: ٢]

٣- تَنَزَّلُ الملائكةُ والروحُ فيها بإذنِ ربِّهم:

تكتسب هذه السبيكة خصوصيّتها من بنائها النحويّ، مع اجتماع تعبيرين قرآنيّين مميَزين فيها ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ، بِإِذْنِ رَبِّهِم ﴾.

٤- بإذنِ ربِّهم مِن كلِّ أمْر:

لا شكّ أنّ تركيب هذه السبيكة، بكلّ ما مرّ بنا من ملابساتها اللغويّة حتّى الآن، وما سوف يمرّ بنا في الحديث عن اللغة المنفتحة للسورة بعد ذلك، فضلاً عن بنائها النحويّ الخاصّ، يجعل منها إحدى السبائك القرآنيّة المتفرّدة، ليس في تراثنا الجاهلي والإسلاميّ فحسب، بل في القرآن نفسه أيضاً، لأنّها لا تتكرّر في غير هذه السورة.

٥- سلامٌ هي حتّى مطلَعِ الفجر:

يمتدّ التأثير اللغوي للسبيكة السابقة إلى هذه السبيكة أيضاً، نتيجةً لتداخلهما وتباين أقوال النحويّين والمفسّرين في تخريج علاقاتهما اللغويّة والنحويّة، فضلاً عن خصوصيّة هذه الآية بابتدائها بنكرةٍ (سلام) واختتامها بالتعبير القرآنيّ الجديد ﴿مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾.

رابعاً: مواقع منفتحة

١- أنزلناه:

عرفنا كيف كان لهذا اللفظ أكثر من مَنفذٍ ننفذ منه إليه، أو يَنفذ منه إلينا، وهذا ما جعل المفسّرين يفهمونه بأكثر من طريقةٍ، ومن ثمّ يمنحونه أبعاداً تأويليّةً ولغويّةً عدّة يجعله على رأس قائمة العبارات المنفتحة، فقالوا في معانيه:

أي: إنّنا ابتدأنا إنزاله في ليلة القدْر،

وقالوا: بل نَزل به جبريل جملةً واحدةً في ليلة القدْر؛ من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا،

وقالوا: أملاه جبريل على السَفَرة؛ أي الملائكة الكَتَبة، في السماء الدنيا، ثمّ كان جبريل ينزّله على النبيّ نجوماً نجوماً، أي جزءاً جزءاً، على حسب الحاجة.

٢- ليلة القَدْر:

تباينت أقوال المفسّرين، وبشكلٍ غير عادي، في طبيعة هذه الليلة ووصفِها وتاريخها وما يجري فيها، وهذا يشير إلى غناها الانفتاحيّ وطاقتها المتفوّقة في إثارة خيالنا وتفكيرنا. فقالوا في وقتها وتاريخها، مستندين أحياناً إلى بعض الأحاديث النبويّة:

إنّها من غروب الشمس إلى أن يطلع الفجر،

وقالوا: إنّها في العشر الأواخر في كلّ وترٍ من ليالي رمضان،

وقالوا: هي في الليالي الستّ، من ليالي الوتر، كلّها،

وقالوا: إنّها ليلة السابع والعشرين منه،

وقالوا: هي في الليلة الأولى، أو السابعة عشرة، أو التاسعة عشرة، أو الحادية والعشرين، أو الثالثة والعشرين، أو الخامسة والعشرين،

وقالوا: هي في كلّ رمضان،

وقيل: هي في الأشفاع من الليالي،

وقيل: إنّها إذا كانت في يومٍ في هذه السنة كانت في العام المقبل في يومٍ آخر،

وقيل: إنّه تعالى قسّم ليالي رمضان على كلمات هذه السورة (٣٠ كلمة)، فلمّا بلغ الكلمة السابعة والعشرين أشار إليها فقال: هي،

وقالوا: إنّها رُفِعت، وإنّها إنّما وقعت مرّةً واحدةً ثمّ لا تتكرّر.

كما قالوا في أصل تسميتها وفيما يقع فيها من أعمال:

سُمّيت كذلك لأنّ للطاعات فيها قَدْراً عظيماً وثواباً جزيلاً،

وقالوا: سُمّيت كذلك لعظيم قدرها وعلوّ شرفها،

وقالوا: ليلة القدْر، أي ليلة التقدير، لأنّه تعالى يقدّر ويقضي فيها ما يشاء من أمره للسنة المقبلة؛ لقوله في آيةٍ أخرى: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ [الدخان: ٤]،

وقالوا: سُمّيت كذلك لأنّ من لم يكن له قَدْرٌ ولا خطرٌ يصير في هذه الليلة ذا قدْرٍ إذا أحياها،

وقالوا: إنّ (القدْر) هو الضِّيق، وقد سُمّيت كذلك، لأنّ الأرض تضيق في هذه الليلة بالملائكة لكثرتها، ويشتقّ من هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ﴾ أي ضُيِّق،

وقيل: بل لأنّ الله أنزل فيها كتاباً ذا قَدْرٍ، على رسولٍ ذي قَدْر، على أمّةٍ ذات قَدْر،

وقيل: لأنّه ينزل فيها ملائكةٌ ذوو قَدْرٍ وخطر،

وقيل: لأنّه تعالى يُنزل فيها أقداراً كثيرةً من الخير والبركة والمغفرة.

وقد قال الرسول ﷺ في وصفها:

- إنّ أمارةَ ليلةِ القَدْر أنّها صافيةٌ بَلْجَةٌ كأنّ فيها قمراً ساطعاً، ساكنةٌ ساجيةٌ لا بَرْدَ فيها ولا حَرّ، ولا يَحِلُّ لكوكبٍ أن يُرمى به فيها حتّى تُصبِح، وإنّ أمارتَها أنّ الشمسَ صَبيحتَها تَخرُجُ مستويةً ليس لها شُعاعٌ مثلَ القمرِ ليلةَ البدر[1]

٣- ألفِ شهر:

تناقل المفسّرون أكثر من قولٍ في تفسير هذه العبارة، وهم يحاولون الوصول إلى حلّ لغزها، فلماذا: ألف شهر؟

قالوا: إنّ العمل في ليلة القدْر خيرٌ من العمل في ألف شهرٍ ليس فيها ليلة القدْر،

وقالوا: أراد بألف شهر: جميع الدهر، لأنّ العرب تذْكر (الألف) في التكثير

(١) الشيباني، **مسند الإمام أحمد**، مرجع سابق، ج٥، ص٣٢٤، حديث رقم ٢٢٨١٧.

والمبالغة، ومنه قوله تعالى في سورة (البقرة) [الآية: ٩٦]: ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ يعني جميع الدهر،

وقالوا: كان العابد فيما مضى لا يُسمّى كذلك حتّى يعبدَ الله ألف شهرٍ؛ وذلك ٨٣ سنةً و ٤ أشهر،

وقيل إنّ النبيّ ﷺ رأى أعمار أمّته قصيرةً، فخاف ألاّ يبلغوا في العمل مثل ما بلغ غيرُهم، فأعطاه الله ليلة القدْر وجعلها خيراً من ألف شهرٍ عند بقيّة الأمم،

وقيل: كان مُلكُ سليمان ٥٠٠ شهرٍ ومُلكُ ذي القَرنَين ٥٠٠ شهرٍ فصار مُلكُهما ألف شهر، فجعل الله العمل في هذه الليلة خيراً من مُلكهما،

وقيل: إنّ الرسول ﷺ ذكر رجلاً من بني إسرائيل لبس السلاحَ في سبيل الله ألف شهر، فعجب المسلمون من ذلك واستكثروه، فنزلت الآية مطمئنةً لهم،

وقيل: هو رقمٌ يرمز إلى متوسّط عمر الإنسان، فالليلة خيرٌ من كلّ عمره.

٤- الروح:

تباينت أقوال المفسّرين في تعريف (الروح) في هذه السورة. ويقف وراء هذا التباين عطف الكلمة على (الملائكة) بما يوحي أنّها شيءٌ مختلفٌ ومنفصلٌ عنها، وكذلك الاستخدام الجديد للكلمة والمخالف لأعراف العرب فيها كما رأينا. ومن هنا طرحوا لها، ومن ثمّ للسياق الذي وردت فيه، مثل هذه المعاني:

أنّها جبريل، وهو رأي الجمهور؛ أي تتنزّل الملائكة ومعهم جبريل. ووجهُ ذكرِه، بعد دخوله في الملائكة، التعظيم له والتشريف لشأنه،

أو أنّها صنفٌ من الملائكة هم أشرفهم وحَفَظةٌ على سائرهم، وأنّ الملائكة لا يرونهم؛ كما لا نرى نحن الملائكة،

أو أنّها جندٌ من جنود الله من غير الملائكة، وهي التي في سورة (النبأ): ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ﴾ [الآية: ٣٨]،

أو أنّها صنفٌ من خلق الله يأكلون الطعام ولهم أيدٍ وأرجلٌ، وليسوا ملائكة،

أو هي الرحمة، ودليله قوله تعالى في سورة (النحل): ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ ﴾ [الآية: ٢].

٥- تَنَزُّلُ الملائكةُ والروحُ فيها:

على ضوء التعريفات المتعدّدة للفظ (الروح) يستطيع المرء الآن أن يطلق لخياله العنان، ليتمثّل صوراً عديدةً فوق أن تُحصى؛ لهذا المشهد العجيب من التواصل بين السماء والأرض، ومنها ما يصفه لنا الرسول ﷺ في الحديث:

- إذا كان ليلةُ القَدْر نزل جبريلُ عليه السلام في كَبْكَبةٍ (جماعةٍ) من الملائكة يُصلّون على كلّ عبدٍ قائمٍ أو قاعدٍ يذكر الله عزّ وجلّ[1]

٦- مِن كلِّ أمْر:

مع تعدّد الآراء في تعليق الجارّ والمجرور ﴿مِّن كُلِّ﴾، وتعدّدها في شرح معنى الأداة (مِن) تتعدّد الاتجاهات في تفسير هذه العبارة:

فيمكن تعليق الجارّ والمجرور بالخبر (سلامٌ) الذي تأخّر عنهما وحُذف مبتدأه، أي: هي سلامٌ من كلّ أمر،

ويمكن تعليقهما بصفةٍ محذوفةٍ لمفعولٍ مطلقٍ محذوفٍ يُفهم من الفعل (تنَزّل) أي: تنَزَّلُ تَنزُّلاً صادراً من كلّ أمرٍ إلهيّ،

ويمكن أن تكون (مِن) هنا بمعنى (بسبب) أي: من أجل كلّ أمرٍ من الأمور التي قضى الله بها في تلك السنة،

أو أن تكون (مِن) بمعنى (اللام) أي: لكلّ أمر،

أو تكون بمعنى (الباء) أي: بكلّ أمرٍ أمَره الله في شأن العباد.

---

(١) البيهقي، **شعب الإيمان**، مرجع سابق، ج٣، ص٣٤٣، حديث رقم ٣٧١٧.

obeikan.com

٧- سلامٌ هي حتّى مطلَعَ الفجر:

توسّع المفسّرون في فهم (السلام) هنا، انطلاقاً من توسّعهم في إعراب اللفظ من ناحية: أهو خبرٌ للضمير (هي) المتأخّر بعده، والتقدير: هي سلامٌ حتّى الفجر؟ أم هو خبرٌ لمبتدأ محذوف، والتقدير: هي سلامٌ من كلّ أمر، وكذلك انطلاقاً من حقيقة (السلام) هنا وطبيعته، من ناحيةٍ ثانية، ثم تِبعاً لإعراب (حتّى): هل تتعلّق بـ(سلام) أم تتعلّق بـ(تنَزَّل) أي: تستمرّ الملائكة في النزول حتّى مطلع الفجر، من ناحيةٍ ثالثة، ولهذا قالوا:

هي سلامةٌ وأمانٌ مِن أن يؤثّر خلالها شيطانٌ في مؤمنٍ أو مؤمنة، وقالوا:

هي ليلةٌ سالمة أمينةٌ لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءاً ولا أذىً، وقالوا:

هو تسليم الملائكة على أهل المساجد حين تغيب الشمس حتّى يطلع الفجر، وقالوا:

هو تسليم الملائكة بعضهم على بعض، وقالوا:

سلامٌ على أولياء الله وأهل طاعته، وقالوا:

في تلك الليلة تُصفَّد مَرَدة الشياطين وتُغَلُّ عفاريتُ الجِنّ، وتُفتح أبوابُ السماء كلُّها، ويَقبل اللهُ التوبة لكلّ تائب، وقالوا:

لا يَقضي الله فيها إلاّ السلامة، أمّا في بقيّة الليالي فالسلامة وغيرها، وقالوا:

لا يَنفذ فيها سحر ساحر، وقالوا:

سلامٌ هي: أي خيرٌ هي..

خامساً: جوامعُ الكَلِم

١- ليلة القَدْر:

لقد أضحى هذا التعبير جزءاً من حياتنا الشعبيّة يتردّد على ألسنتنا في مناسباتٍ مختلفة:

فمن أصابه حظٌّ كبير فلا بدّ أنّ أمّه قد "دَعَت له" في ليلة القَدْر،

ومن فَتحت له الدنيا أبوابها فلا بدّ أن يكون قد أصاب ليلة القدر،

ومن سهر العشر الأواخر من ليالي رمضان قانتاً متعبّداً فهو مترقّبٌ ليلة القدر..

٢- وما أدراكَ ما:

دخل هذا التركيب أيضاً معجمنا التعبيريّ بعد نزول القرآن:

فإذا أردنا تحذير أحدهم من إنسانٍ قلنا: هل سمعت بفلان؟ وما أدراك ما فلان،

وإذا أردنا التهويل في وصف أمرٍ قلنا: ألم تسمع بما حدث؟ وما أدراك ما حدث..

٣- بإذنِ ربِّهم:

رغم عدم وجود هذا التعبير في الشعر الجاهليّ، كما عرفنا، غدا اليوم تعبير (بإذن ربّك) يحتلّ زوايا عديدةً في لغتنا، جنباً إلى جنبٍ مع التعبير القرآنيّ ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ والتعبير القرآنيّ الآخر ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

٤- سلامٌ هي حتّى مطلَعَ الفجر:

كثيراً ما نتّكئ على هذا التعبير القرآنيّ حين نريد وصف ليلةٍ طويلةٍ وطيّبة، أو حين نتمنّى امتداد تلك الليلة وما كان فيها.